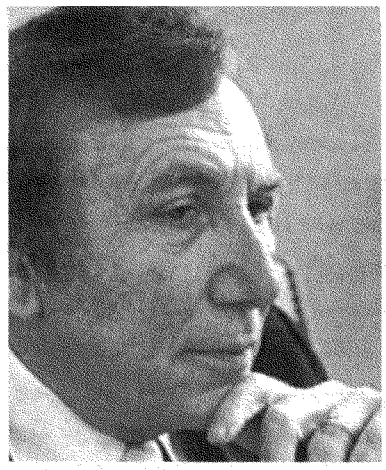

نزار قباني في مرآة النقد الأدبيّ

عبده عبّود

يتوقّع نزار من النقّاد أن يحبّوه ويمجّدوه، حتى وإنْ ضربوا بالمناهج النقدية عرضَ الحائط

النقد العربي متشبّث بنماذج معيّنة من الحداثة الشعرية، في حين أنّ قباني نموذج مختلف لا يقلّ أهميةً

ما أكثر ما يتردّد على ألسنتنا القول المأثور: «رحم اللّهُ امرأً أهدى إليّ عيوبَ نفسي». ولكنّ هذا النوعَ من الهدايا لم يكن في واقع الأمر مرغوباً في أيّ وقتٍ من الأوقات. ومع ذلك كان النقد وما زال وسيلةً ضروريةً للتصحيح والتغيير والتقويم، إنْ في المجتمع وإنْ في الثقافة والأدب. إنّ ما وصفه شيخُ النقّاد العرب المحدثين ميخائيل نعيمة بـ «الغربلة»، أي فصل الغثّ من الأعمال الأدبية عن السمين، هو أمانة يحملها النقّاد تجاه متلقّي الأدب ومبدعيه على حدّ سواء. وهم يحملون تلك الأمانة دون أية أوهام، لا يتوقّعون جزاءً ولا شكوراً، خصوصاً من جانب الأدباء الذين كثيراً ما يضيقون ذَرْعاً بالنقد، ويتمنّون أن يذهب النقّاد الى الجحيم!

استياء من النقد

لم يكن الشاعر الراحل نزار قباني راضياً عن النقد الأدبي، وقد عبّر غَيْرَ مرّةٍ عن استيائه منه. ففي حوار نشرته مجلة **العربي** الكويتية سنة ١٩٨٩ قال ردّاً على سؤال: «لماذا تُخاصِمُ النقدَ؟»:

«إنّ النقاد لم يضيئوا زاويةً من الشعر العربيّ. فقد كان الشعر العربيّ كعمل إبداعيّ سابقاً لكلّ عمل نقديّ. أما بالنسبة إليّ فعبر مسيرتي الطويلة هذه، على مدى أربعين عاماً، لم أستفدْ من كلمةِ نقدٍ واحدة. يترك الناقدُ شعري، ويتناول سيرتي الشخصيّة وشؤوني الصغيرةَ الخاصة، وأنا أفضّل أن أقدّم نفسي للقارئ كما أنا، وليس بالصورة التي يكوّنها الناقدُ على مزاجه»[١].

وفي «السيرة الذاتية القصيرة» التي صدّر بها نزار قباني مجموعته الشعرية **هل تسمعين صهيل أحزاني**، كتب يقول: «يحاول النقدُ أن يتعلق بعربة الشعر، ولكنّ الحوذيَّ يضربه بالكرباج، فيسقط مضرّجاً بدمِ أحقاده»[٢]. ثم يعلّق على التبعات الثقافية لعصر النفط العربيّ فيقول: «فسدتْ أخلاقُ الحارة، وأصبح الزعرانُ رؤساء لتحرير الصفحات الثقافية، وصارت مهنةُ النقد كمهنة الصيرفة، خاضعةً لقانون العرض والطلب»[٣].

ومن أعنف الهجمات التي شنّها نزار قباني على النقد تلك الهجمةُ التي وردتْ في مقابلةٍ أجرتها معه مجلةُ **الشراع** سنة ١٩٨٧. فقد نَفَى أن يكون النقدُ قد أنصفه، وعلّل ذلك بالقول:

«لأنني خلال أربعين عاماً من كتابة الشعر لم أقرأ كلامَ النقّاد عن شعري ولم أعمل بنصائحهم، بقيتُ شاعراً.. فالنقاد عندنا مثلُ الكميونات الكبيرة، تُفْرغ بضائعها في منتصف الشارع حتى تعرقل سيلَ القصائد وتكسر أعناقَ

١ ـ مجلة **العربي**، الكويت، العدد ٣٦٤، آذار ١٩٨٩، ص ١٠٢.

٢ ـ نزار قباني: **هل تسمعين صهيل أحزاني؟** بيروت: منشورات نزار قباني، ط ٢، ١٩٩٢، ص ٢٧.

٣ ـ المصدر نفسه، ص ٢٩.

الشعراء. ومن أجمل ما قرأتُهُ عن النقد الأدبي ما قاله الروائي الفرنسيّ فرانسوا نورسييه: الناقدُ رجل شرطة يطارد الكاتب داخل كتبه...»[1].

وفي المقابلة عينها أمعن الشاعرُ في احتقار النقد والتقليل من شأنه، قائلاً: «إنّ ألف ناقد لا يستطيعون أن يصنعوا شاعراً.. أو يطلقوا عصفوراً شعريّاً واحداً.. فالجمهور وحده صانعُ الشعراء والعصافير».

ولكنْ أصحيح أنّ نزار قباني كان غيرَ مكترثٍ بالنقد ولا يقرأ النقاد؟ هناك وقائع كثيرةٌ تدلّ بما لا يدع مجالاً للشكّ على أنّ ذلك غير صحيح. فقد كان نزار في حقيقة الأمر شديدَ الاهتمام بكل ما يُكتبُ ويقال عنه، وكان يرصد ردودَ الفعل النقدية بكل دقة، وكان فوق ذلك يسعى الى توجيه ما يُكتب عنه نقدياً، ويُجزل الشكرَ لكلّ مَنْ يحاضر عن أدبه أو يدرسه أو يكتب عنه بصورة إيجابية. وما أكثر المحاضرين والمؤلفين والدارسين الذين كتب لهم نزار رسائل شكر رقيقة! أمّا مَنْ يكتب عنه بالمعنى الآخر للنقد، أي بمعنى التعبير عن الاختلاف والاعتراض، فقد كان لنزار موقفٌ آخر منه. وعندما تحدّث الشاعر بازدراءٍ واستياءٍ عن النقد، كان يقصد بكلامه النوعَ الأخير، أي النقد الانتقادي. وليس أدلّ على اهتمام نزار بالنقد الأدبي عموماً، وبالنقد الإيجابي على وجه الخصوص، من حقيقة أنه قد وجّه رسالتين بخطّ يده: واحدةً إلى علي المصري، مؤلف كتاب **رحلة شوق مع نزار قباني**، وواحدة الى الدكتور ماهر حسن فهمي، مؤلف كتاب **نزار قباني وعمر بن أبي ربيعة ـ دراسة في فن الموازنة**؛ وهما رسالتان متضمّنتان في الكتابين المذكورين. أما كتاب محيي الدين صبحي **الكون الشعري عند نزار قباني**، فقد خصّه الشاعرُ بمقدمةٍ في صورة حوار مع المؤلف.

هذا هو باختصار موقفُ الشاعر نزار قباني من النقد الأدبي. إنه موقف متناقض، ينطبق عليه قولُ المثل الشعبي «عيني فيه وتفوه عليه». ترى هل استحق النقدُ الأدبيُّ ذلك الاستياء والازدراءَ اللذين عبّر عنهما الشاعر؟

إنجازات النقد

إذا استعرضنا مجملَ ما كُتب عن نزار قباني من كتبٍ وأبحاثٍ ومقالات ورسائل جامعيةٍ، وجدنا أنّ هذا الشاعر قد حظي بقدر من التأليف النقديّ لم يحظَ به شاعرٌ معاصرٌ عربي آخر، ولا أستثني الشعراء محمود درويش وعبد الوهاب البياتي وأدونيس وأحمد عبد المعطي حجازي. ويكفي أن نذكّر بكتاب **نزار قباني شاعر لكل الأجيال** الذي صدر حديثاً في مجلدين يقعان في ١١٢٠ (ألفٍ ومائةٍ وعشرين صفحةً) ويحوي ستةً وعشرين بحثاً نقدياً وسبعين شهادةً[2]. ومن المؤكد أنّ هذا الكتاب، على ضخامته، لا يحوي سوى جزءٍ يسير مما كُتب عن نزار قباني، وأنّ القسم الأعظم من تلك الكتابات لم يوثّق ويجمعْ بَعْدُ، ولا أشكّ في أنّ الفهرس الكامل لِما كُتب نقدياً عن نزار قباني وأدبه سيشكّل، إذا قُيّض له أن يوضَعَ، مجلداً ضخماً. فنزار لا يستطيع أن يشكو إهمالَ النقد، من الناحية الكمية على الأقلّ.

أما قولُه إنّ «الناقد يترك شعره ويتناول سيرتَه الشخصيةَ وشؤونَه الصغيرة»، فهو لا ينطبق إلاّ على جزء من الكتابات الصحافية، ولا ينطبق البتةَ على الكتابات التي تستحقّ أن نسمّيها نقديّة. إنه لا ينطبق، مثلاً، على كتاب محيي الدين صبحي **الكون الشعري عند نزار قباني**، وهو كتابٌ مكرّسٌ لدراسة شعر نزار قباني دراسةً نقديةً تحليلية وفنيّة[3]. ولا ينطبق أيضاً على كتاب **نزار قباني** للناقد والأستاذ الجامعي اللبناني الدكتور إيليا حاوي، رغم ما ينطوي عليه هذا الكتابُ من مواقف نقديةٍ حادّة[4]. وهو لا ينطبق على كتاب الدكتور خريستو نجم **النرجسية في شعر نزار قباني**، وهو دراسة منهجية لعلاقة شعر نزار قباني بشخصيته وسيرته[5]. إنّ ما قاله نزار عن النقّاد ينطبق بالدرجة الأولى على بعض الكتابات الصحفيّة، التي جاءت استجاباتٍ على قصائد نزار قباني التي مارس فيها نقداً اجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً جارحاً للواقع العربي، بدءاً بقصيدة «خبز وحشيش وقمر» وانتهاءً بالإعلان الشهير عن «موت العرب». وقد كان من الطبيعي أن تثير تلك القصائد ردودَ فعلٍ عصبيةً لدى قطاعات من الرأي العام العربي.

ولعلّ الفصل الأكثر إثارةً وإيلاماً في هذا المجال هو تلك المعركة التي دارت بين نزار قباني والصحافي اللبناني جهاد فاضل بعد صدور مجموعة **قصائد مغضوب عليها**. إنها معركة أظهرت ازدواجيةَ موقفِ نزار من النقد الصحافيّ. فقد أعطى ذلك الصحافيَّ مقابلةً مسجّلةً بصوته، ثم حاول أن يثنيه عن نشرها بعد أن أدرك أنه قد قال فيها أموراً يمكن أن

١ـ مجلة **الشراع**، بيروت، ١٨/٥/١٩٨٧.

٢ ـ سعاد محمد الصباح (إشراف): **نزار قباني شاعر لكلّ الأجيال**. دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٨.

٣ ـ محيي الدين صبحي: **الكون الشعري عند نزار قباني**. تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢.

٤ ـ إيليا حاوي: **نزار قباني**. بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت.

٥ ـ خريستو نجم: **النرجسية في أدب نزار قباني**. بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٣.

تؤثّر سلبياً على صورته في الرأي العامّ العربيّ. إلاّ أنّ جهاد فاضل نشر المقابلة كما هي، الأمر الذي أشعل تلك المعركةَ النقدية التي وثّقها فاضل في كتابه **فتافيت شاعر**[1]. وقد كان انزعاجُ نزار قباني من ذلك الكتاب شديداً الى درجة أنه رفع دعوى قضائيةً ضدّ المؤلف والناشر. ومن الملاحظ أنّ تلك المعركة النقدية قد شهدتْ إسفافاً من الجانبين: فقد حاول قباني أن يصرف الانتباهَ عن المضمون الفكري لخلافه مع فاضل، وذلك بأن ركّز على أنّ هذا الرجل مسيحي، بَدَّلَ اسمَه من «جوزيف» الى «جهاد» ركوباً «لموجة الجهاد والمجاهدين»، ونَعَتَهُ بـ «الخواجة جوزيف» الذي «يتقوقع في مقعده كالحلزونة»[2]. وبالمقابل أخذ الصحافيُّ جهاد فاضل ينقّب عن الجذور التركيّة والأرناؤوطية لأسرة نزار، وتوصّل الى أنّ الاسم الحقيقي لتلك الأسرة هو «آقبيق»، وأنّ الاسم الحقيقي لنزار قباني هو «نزار آقبيق». ولم تنته تلك المعركةُ بوفاة نزار. فمقالة جهاد فاضل «وقفة نقدية بعيداً عن التأبين»، التي نشرتْها مجلةُ **الحوادث** بعيْدَ وفاة نزار، تدلّ على حجم المرارة التي خلّفتها تلك المعركةُ النقديةُ التي خاضها الطرفان بوسائل غير لائقة[3].

النقد المطلوب

إذا تركنا النقد الأدبيَّ الصحافيَّ جانباً ونظرنا الى النقد الأدبيّ الأكثر جديّةً، أي الى ذلك النقد الذي أخذ شكلَ كتبٍ ورسائلَ جامعيةٍ وبحوثٍ منشورةٍ في الدوريات الثقافة والأدبية، فإننا نستطيع أن نتبين في ذلك النقد عدّةَ اتجاهات، أوّلها اتجاهٌ يصدر فيما كتبه عن إعجاب شديد بنزار قباني وانبهارٍ بكلّ ما كَتَبَ. أما أبرز ممثّلٍ لهذا الاتجاه فهو علي المصري في كتابه **رحلة شوق مع نزار قباني** الصادر سنة ١٩٧٧. فهذا الكتاب بمثابة سيرةٍ تحمل الكثير من سمات سِيَرِ الأنبياء والقدّيسين والأبطال القوميين، بما تنطوي عليه تلك السِّيَرُ من تعظيمٍ وتمجيدٍ وتقديسٍ وأسطرة. فقد كتب علي المصري عن مولد نزار قباني:

«في الحادي والعشرين من آذار سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة والف، انبثق الشاعرُ مع انفتاح أزرار الورد، ومخاض الطبيعة بميلاد الربيع.. من أبٍ أصيلِ الأرومة في الوطنية والفنّ والعشق، ومن أمٍّ منعّمةٍ مغرقة في شاميّتها.. لم يكن مولدُ الشاعر مع ميلاد الربيع في جنّة من جنان دمشق الوارفة مجرّدَ صدفة، وإنما كان عمليةَ تزاوجٍ فذٍّ وانسجامٍ كامل لعناصر الطبيعة الخلاّقة التي احكمتْ تفاصيلها بنواميس أزليةٍ لا تخطئ»[4].

أمّا عن شعر نزار قباني فقد كتب علي المصري: «للّهِ درُّكَ يا نزار، يا فارس البيان، ويا أمير القوافي، ونسمةَ الخلود، يا صانعَ الحرف في أحسن تقويم!». وهذا نموذج آخر من تلك الكتابة:

«وظلت التجربةُ ماضيةً الى الأمام، تحقق كلّ يوم نصراً، وتنفحنا كلّ يوم قصيدةٌ عذبةٌ، يا شاعرَ الجمال، حتى استويتَ على عرشٍ من الريحان والعنبر في نفسِ كلِّ محبٍّ للشعر والأدب والحياة والتطور. فسلامٌ عليك يوم كتبتَ ويوم صُلِبتَ ويوم احترقتَ ويوم انتصبت شاعراً مارداً حيّاً».

لم يجشّم المؤلفُ نفسَه عناءَ بذلِ أيِّ جهدٍ تأليفي، كأنْ يوثّق المصادر والمراجع (إذا افترضنا أنه قد استخدم أية مراجع)، أو أن يحلل أيَّ نصّ من نصوص نزار الشعري. حَسْبُه أنه أراد أن يعبّر عن إعجابِهِ اللامتناهي بنزار قباني، فأنشأ هذا الكتاب الذي ينطبق عليه بصورة كاملة ما قاله نزار عن النقد من أنه لم يضئ زاويةً من الشعر العربي. ولكنْ ماذا كان موقف نزار نفسه من كتاب علي المصري؟ يقول نزار في رسالةٍ كتبها بخطّ يده ووجّهها الى المؤلف:

«وبعدُ... فهذا كتاب يسجّل فيه علي المصري يومياتِ حبّه لي بكلّ التفاصيل، ويضيء فيه زوايا من حياتي وشعري لا يعرفها كثيرون... وربما لا يتقيّد الكتابُ بنظريات النقد وأصوله، ولكنه نابع من حبّ حقيقيّ... والحبّ الحقيقي هو فوق الأصول وفوق النظريات».

من الواضح أنّ نزاراً قد برَّرَ افتقارَ هذا الكتاب الى المنهجيّة والعلمية بـ «الحبّ»، الذي جعله أهمّ من الأصول والنظريات. تُرى ما سرّ هذا التناقض الصارخ بين قول نزار «إنّ النقد لم يضئ زاويةً» من شعره، وبين قوله إنّ كتاب علي المصري «يضيء زوايا من حياته وشعره لا يعرفها كثيرون»؟ إنّ هذا التناقض يُظهر لنا ما يتوقعه نزار من النقّاد: أنْ يحبّوه ويمجّدوه على طريقة علي المصري، حتى وإنْ ضَرَبوا بالنظريات والمناهج النقدية عرضَ الحائط!

قراءة متذوّقة

انطلق محيي الدين صبحي في كتابه **نزار قباني شاعراً وإنساناً**، الصادر سنة ١٩٥٨، من موقفٍ شديد الإيجابية من الشاعر. فهو لم يبخلْ على نزار بالثناء، وشبّهه «بشمس الربيع أو أصباح الصيف، منعش وحافز. إنه عنقودُ أفكار، وكأنّ جوهره شعلة المعرفة التي اختلسها بروميثيوس الخالد»[5]. وقد حافظ المؤلّف على هذا الخطّ

١ ـ جهاد فاضل: **فتافيت شاعر ـ وقائع معركة مع نزار قباني**. بيروت، القاهرة: دار الشروق، ط ٢، ١٩٨٩.

٢ ـ المرجع السابق، ص ٥١.

٣ ـ جهاد فاضل: «وقفة نقدية بعيداً عن التأبين». مجلة **الحوادث**، بيروت، العدد ٢١٦٦، ٨ ـ ١٤ أيار ١٩٩٨، ص ٥٤ ـ ٥٧.

٤ ـ علي المصري: **رحلة شوق مع نزار قباني**. حلب: دار الكتاب العربي، ١٩٧٧، ص ١٢.

٥ ـ محيي الدين صبحي: **نزار قباني شاعراً وإنساناً**. بيروت: دار الآداب، ١٩٥٨، ص ٧.

الإيجابي في كتابه الثاني **الكون الشعري عند نزار قباني**، الصادر سنة ١٩٧٧. ولئن كان صبحي قد اكتفى في الكتاب الأول بالتعريف العامّ الأفقي بنزار قباني وشعره، فإنّه قد دخل في كتابه الثاني في عمق ذلك الشعر، مستعيناً في ذلك بأدوات نقديّة متنوّعة، بعضُها مأخوذٌ من التراث النقديّ العربي القديم، والبعضُ الآخر من الفكر النقدي الغربي، ولاسيما «النقد الجديد» الذي كان المؤلِّف قد عرّب اثنين من مؤلفاته[١]. وبصرف النظر عن مسألة جدّة المنهج النقديّ الذي اتّبعه محيي الدين صبحي، فإنّ كتاب **الكون الشعري عند نزار قباني** يحتوي على قراءات وتحليلات متأنّية ومتعمّقة للعديد من قصائد نزار قباني. إنها وقفات نقدية حلّل فيها المؤلّفُ «الصورَ والتشابيهَ ومواضعَ الجمال والإعجاز» في تلك القصائد التي قرأها متذوّقاً مفسِّراً محلِّلاً.

هيمنة المنهج السيكولوجي

في أواخر السبعينات أخذ يهيمن على الدرس النقدي المتعلق بشعر نزار قباني منهجٌ نقديٌّ بالغُ الإشكالية، ألا وهو المنهج النفسي في دراسة الأدب. وقد تمحور ما جاء به أنصارُ هذا المنهج من دراسات نقدية حول مقولةٍ رئيسةٍ مفادُها أنّ نزار قباني شخصية نرجسيّة، وأنّ شعره تعبير عن تلك النرجسيّة. ففي عام ١٩٧٩ نشر الناقد الجزائري سعد بوفلاقة دراسةً بعنوان «النرجسية في شعر نزار قباني»، خَلَصَ فيها الى أنّ شعر نزار يعبِّر عن نرجسيةٍ بورجوازيةٍ تجاه المرأة. وقد وصف الناقد تلك النرجسية بأنها «نرجسيةٌ متعالية» منفصلةٌ عن الواقع الموضوعي، ومسخَّرةٌ لخدمة الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الشاعر[٢]. أما النصوص التي اعتمد عليها بوفلاقة في دعم مقولته هذه، فهي قصائد من مجموعات نزار قباني المبكّرة، كقصيدة «إلى أجيرة» التي مطلعها: «بدراهمي / لا بالحديث الناعم / حطّمتُ عزّتَكِ المنيعة كلّها بدراهمي/ وبما حملتُ من النفائس والحرير الحالم...» إلى آخر تلك القصيدة المأخوذة من مجموعة **قصائد** الصادرة سنة ١٩٥٦. وقد ارتكب بوفلاقة في قراءته لهذه القصيدة أخطاء نموذجيّةً بالنسبة الى أولئك الذين يتبنّون المنهجَ النفسيّ في الدراسات الأدبية. فقد انطلق من مقولةٍ عامّةٍ مفادُها وجودُ روابط وثيقةٍ بين اتجاه النتاج الفنيّ للشاعر وبين حياته الشخصية، ثم طبّق هذه المقولة على شعر نزار بصورة تبسيطية ساذجة. فقد ذهب الى أنّ «الأنا» أو «الذات» التي تتحدّث في هذه القصيدة هي «أنا» الشاعر أو «ذاته»؛ وهذا رأيٌ يتعارض مع أبسط مبادئ النقد ونظرية الأدب. ففي شعر نزار، وغيره من الشعراء والأدباء، كثيرٌ من «الذوات» و«الأنوات»، بعضُها مذكَّرٌ والبعض الآخر مؤنث. فهل يمكن أن تكون تلك الذوات ذاتَ الشاعر؟ من مُسلَّمات النقد الأدبي وبديهياته أنّ الذات التي تتكلم في النصّ الأدبي بصيغة «أنا» هي ذاتٌ أدبيةٌ أو شعريةٌ، لا ذاتٌ شخصية. فإذا أخذنا هذه المسلَّمة في الحسبان، تهاوى ما ذهب إليه بوفلاقة من أنّ نزاراً يعبّر في شعره عن «نرجسيّة بورجوازية تجاه المرأة».

نزار شاعر نرجسيّ؟

على أية حال فإنّ نغمة «نزار قباني ـ الشاعر النرجسيّ» اشتدتْ وازدادت انتشاراً، ويمكن القول إنّها بلغتْ ذروتها في كتاب الدكتور خريستو نجم: **النرجسيّة في أدب نزار قباني** الصادر سنة ١٩٨٣. إنه سِفْر ضخم يقع في ٤٥٠ صفحة، وقد كان له تأثير كبير على الدراسات النقدية اللاحقة المتعلقة بأدب نزار قباني.

كتب الدكتور جبّور عبد النور في مقدمةٍ خصّ بها هذا الكتاب: «تطبيق التحليل النفسي وحده في دراسة الشعر قد يساعد على فهمه من زاوية خاصّة، فيلقي عليه أضواء كاشفة. ولكنّه، في غوصه على أعماق النفس البشرية، قد يعطّل ما في الشعر من شاعريّة»[٣]. ومن المؤسف القول إنّ ذلك هو ما حدث لخريستو نجم. فقد كتب في مقدمة كتابه أنّ دراسته «دراسة أدبيّة في منطلقها ومرماها، وليست الناحية السيكولوجية إلاّ وسيلةً لتوضيح ما لا تستطيعه المدارسُ الأدبية التقليدية»[٤]. لا أحد يختلف مع خريستو أنّ لشخصية الفنان أثراً في عمله ونتاجه، وأنّ «المسافة بين الكاتب وعمله قصيرة جداً»، إلاّ أن الخلاف يتعلّق بما يترتّب على هذه المقولات من نتائج نقدية. فعلم النفس يمكن أن يساعد في فهم الأدب، ولكن لا يجوز أن يُستخدم أداةً رئيسةً لفهمه ودراسته. إنّ العمل الأدبي هو عمل فنيّ لغويّ أولاً وأخيراً، ومن ثمّ فإنّ الأدوات النقدية الصالحة لفهمه وتحليله وتفسيره هي الأدوات المستمدة من علوم الأدب واللغة في المقام الأول. أما العلوم الإنسانية الأخرى، ومنها علم النفس، فهي لا

١ ـ هذان المؤلفان هما: **نظرية الأدب** لرينيه ويليك وأوستن وارنْ، و**النقد الأدبي ـ تاريخ موجز** لوليام ويمزات وكلينت بروكس.

٢ ـ سعد بوفلاقة: **النرجسيّة في شعر نزار قباني**. د.م. ١٩٩٤، ص ٢٤.

٣ ـ خريستو نجم: م.س، ص ٥.

٤ ـ المرجع نفسه، ص ١٢.

تستطيع أن تقوم في هذا المجال بأكثر من دورٍ مساعد. فإذا اضطلع ذلك العلمُ بدورٍ رئيسٍ، تحوّلتْ طبيعةُ الدراسة من دراسة أدبية ونقدية الى دراسة في علم نفس الأدب. وهذا ما حصل لخريستو نجم. فقد قدّم في كتابه «صورةً لشخصية نزار قباني في ضوء انعكاسها في شعره»، واستخدم ذلك الشعر في فهم شخصية الشاعر التي رأى في «النرجسيّة» مفتاحاً لفهمها. إنّ من يقرأ هذا الكتاب يحصل على معلومات غزيرة عن شخصية نزار قباني وعن علم النفس، ولكنه لا يزداد فهماً لشعر نزار قباني وبناه الفنيّة.

لقد انتهى الزمانُ الذي كانت تدرَّسُ فيه النصوصُ الأدبية لناحية علاقاتها الخارجية، وانتقل النصُّ الأدبيُّ نفسُه الى مركز الدرس والتحليل النقدية. لم يعد النصُّ مجرّد وسيلة لفهم شخصية الكاتب، بل أصبحتْ دراسةُ النصّ هدفاً بذاته ولذاته، وأضحت «أدبيةُ الأدب» محورَ أيِّ جهدٍ نقديّ. وهذا ما أدركه بعضُ ممثلي التحليل النفسي المعاصر، كالفرنسي جاك لاكان، الذي طوّر «التحليل النفسي البنيوي» وقدّم بذلك أداةً لمقاربة الأبعاد الجوهرية للأعمال الأدبية، أي الشكل الفني[1]. فقد استُخْدِمتْ مقولاتُ لاكان في فهم تجليات الرغبة في اللغة والاستعارة والتأويل والتلقّي؛ وهذه أمور لا يستطيع النقد إلاّ أن يأخذها على محمل الجدّ. أما خريستو نجم فقد أفلح في الإمساك بشخصية نزار قباني، ولكنْ أفلت منه شعره.

لم يكن نجم أوّل ولا آخر من استخدم المنهج النفسي في دراسة أدب نزار قباني. ويمكن القول إنّ استخدام هذا المنهج، مع التركيز على تصوير المرأة في شعر نزار، قد تحوّل الى سمة مهيمنة على الكتابات النقدية المتعلقة بذلك الشعر. لماذا؟ هل هناك في شعر نزار قباني ما يُغْري باستخدام المنهج النفسي؟ إنه سؤال لا يستطيع المرء إلاّ أن يجيب عنه بـ «نعم». فشعر نزار غنيّ بالمضامين النفسيّة المَصُوغة بأسلوب فيه شيء من الواقعيّة، وهو ما يجعل تفسيرها وفقاً للمنهج النفسي أمراً ممكناً، وذلك خلافاً للشعر الحداثي الغامض الذي اتّسعَتْ فيه الفجوةُ بين اللفظ والمعنى، الأمر الذي يجعل من استخدام المنهج النفسي في تحليله أمراً عسيراً.

خلطةٌ حرية

عشرة كتب على الأقلّ، وعشرات الأبحاث، ومئات المقالات الصحفية، هي حصيلة ما كُتب بالعربية عن نزار قباني. ألا يمكن حيال هذه الحصيلة القولُ إنّ النقد الأدبي قد أدّى واجبه تجاه نزار قباني وأدبه بصورة كاملة؟ ألا تكفي هذه الكتبُ والدراساتُ والمقالات لإضاءة كلِّ زاويةٍ من زوايا شعر نزار؟ يؤسفني أن أجيب عن هذا السؤال بالنّفي. فما كُتب عن نزار كثيرُهُ غثٌّ وقليلُه سمين، لا بل إنّ بعضه يشبه كتبَ المطربين في سطحيته وابتذاله، ككتاب **نزار شاعر المرأة** لمجدي كامل[2].

ومن الأمور التي تستدعي الانتباه أنّ شعر نزار قباني قد قوبل بكثير من التجاهل من جانب القسم الأعظم من النقّاد الأكاديميين المتخصصين في الشعر العربي الحديث. وسبب ذلك، كما يبدو لي، هو أنّ شعر نزار لا يتصف بتلك السمات التي يعدّونها مقوماتٍ جوهريةً للحداثة الشعرية، كالغموض والرمز وتوظيف الأسطورة واتساع الفجوة بين اللغة والدلالة والتخلي عن البنية الإيقاعية التقليدية والاستعاضةِ عن الوسائل البلاغية التقليدية (أي بلاغة التشبيه) بالصور الفنيّة... إلى آخر تلك السمات التي يرى النقّاد والمتخصصون في الحداثة الشعرية العربية أنها متوافرةٌ في شعر أدونيس وخليل حاوي وأمل دنقل ومحمود درويش وسعدي يوسف وأحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم، أكثر من توافرها في شعر نزار قباني. وهذه مسألة كان نزار على علمٍ تامٍّ بها. فقد كتَبَ في سيرته الذاتية القصيرة:

«لا تعذّبوا أنفسكم في تصنيفي.. إنني شاعر خارج التصنيف وخارج الوصف والمواصفات. فلا أنا تقليديّ، ولا أنا حداثويّ. ولا أنا كلاسيكي، ولا أنا نيو ـ كلاسيكي. ولا أنا رومانسيّ، ولا أنا رمزي. ولا أنا ماضوي، ولا أنا مستقبليّ. ولا أنا انطباعي أو تكعيبي أو سرياني.. إنني 'خلطة' لا يستطيع أيُّ مختبرٍ أن يحلّلها. إنني خلطةٌ حريّة»[3].

ويبدو لي أنّ قسماً كبيراً من النقّاد العرب ينطلقون من نماذج معينة للحداثة الشعرية؛ ولذلك لم يهتموا بتلك الخلطة ولم يأخذوها على محمل الجدّ. وفي ذلك لم يُجدِ كلُّ التقريع الذي وجّهه نزار قباني إلى النقّاد. فالنقد لا يَحْمل حقداً على هذا الشاعر، وليس له عنده ثأر، وهو لا يسعى لعرقلة سيل القصائد. وإنما المشكلة تكمن في أنّ النقد الأدبي العربي متشبّثٌ بنماذج الحداثة الشعرية التي يمثلها أدونيس ومحمود درويش وسعدي يوسف وأمثالُهم، ولم يستوعبْ بعدُ أن شعر نزار قباني يشكّل نموذجاً من الحداثة مختلفاً عن النماذج المذكورة ولكنه لا يقلّ عنها أهميّة. ترى متى يدرك النقد الأدبي تلك الحقيقة؟

دمشق

١ ـ آن جفرسون وديفيد روبي: **النظرية الأدبية الحديثة**، ترجمة سمير مسعود. دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٢، ص ٢٢٨ وما بعدها.

٢ ـ مجدي كامل: **نزار شاعر المرأة**. دمشق ـ القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

٣ ـ نزار قباني: م.س. ص ٢١.